حديث العروبة في القرآن

هناك عبارة طالما خطر معناها بالجنان ، وردد ألفاظها اللسان ، وجرى بحروفها القلم ، وهى تقول : « العروبة وعاء الإسلام ، والإسلام روح العروبة » . ولو أن معتزًّا بالعروبة غيوراً عليها أراد أن يزكيها أو يقويها ، ورجع إلى مائدة القرآن الكريم ، لوجد هذا الكتاب العزيز قد ألقى الشيء الكثير من ظلال التزكية والتكريم على هذه العروبة المؤمنة السائرة على صراط مستقيم .

ولحكمة بالغة يعلمها ربُّ القدر اختار الله سبحانه اللغة العربية لساناً للقرآن المجيد ، تمجيداً للعروبة ، وإبقاء على لغتها ، لأن القرآن كتاب الدهر ، والحق جل جلاله يقول : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا الذِّكْرَ وإِنَّا لهُ لحافظون » ، (الحجر ٩) ، وما دام القرآن محفوظاً بوعد الله فلغته العربية محفوظة كذلك بعناية القدر ، وربك يخلق ما يشاء ويختار .

ولحكمة بالغة اختار الله أمة العروبة لتكون أمة الرسالة الإلهية الخاتمة الدائمة ، لتحمل هدى الله الباقى ، إلى أهل المشارق والمغارب ، فتكون المعلمة السابقة للإنسان ، تقود خطواته نحو بارئه العظيم . وينبغى لنا أن

نتذكر أن « العرب » هم ولد إسماعيل ، وأن إسماعيل هو ولد إبراهيم ، وأن إبراهيم هو خليل الرحمن وأبو الأنبياء ، وإسماعيل هو جد حفيده « محمد » الذى حمل رسالة ربه ، وسلمها إلى هذه الأمة ، فأدى الأمانة إلى دعاتها الأولين من مؤمنى العرب ، وتركهم على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك . و « محمد » الذى تزعَّم هذه الدعوة بفضل ربه عربى صميم ، من خلاصة طاهرة فى جبين هذه الأمة العربية ، وياله من اختيار حميد ، كله تكريم للعرب وتمجيد ، ومحمد هو القائل : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » .

فما نتيجة ذلك ؟ . نتيجته أنه – صلوات الله وسلامه عليه – خيار من خيار من خيار.

وقد نوه رسول الله الخاتم بهذه الصبغة العربية فى نسبه وسلالته ، فقال :

« أنا أعربكم » .

« أنا سابق العرب إلى الجنة » .

وروى الترمذى عن سلمان الفارسى قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا سلمان ، لا تبغضنى فتفارق دينك !

قلت : يا رسول الله ، كيف أبغضك وبك هدانا الله ؟

قال : تبغض العرب فتبغضنى .

وروى الترمذى عن عثمان بن عفان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من غش العرب لم يدخل فى شفاعتى ، ولم تنله مودتى » .

وروى ابن كثير فى تفسيره أن رجلا قال للرسول : يا رسول الله ،

بأبى أنت وأمى ، ما أفصحك ؟ ما رأيت الذى هو أعرب منك .

فقال : حق لى ، وإنما أُنزل القرآن بلسانى . والله يقول : بلسان عربى مبين .

ولحكمة بالغة أيضاً اختار الله حَمَلَةَ الإسلام والقرآن الأوائل من العرب ، أمثال أبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وأبى عبيدة ، وطلحة وغيرهم ، وفى هذا تمجيد أى تمجيد للعروبة .

ولحكمة بالغة كذلك اختار الله « الكعبة » فى مكة وهى واسطة العقد فى أرض العروبة — لتكون قبلة للناس جميعاً فى العبادة والدعاء والاتجاه إلى الله : « فَوَلِّ وجْهكَ شطْر المسْجد الحرَام ، وحيْثُ مَا كُنْتُم فولُّوا وجُوهَكم شَطْرَه »(سورة البقرة الآية ١٥٠) .

* * *

والقرآن الحكيم يمجد العرب المؤمنين ، وفى طليعتهم قائدهم رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فيقول فى سورة الزخرف : « وإنَّه لَذِكرٌ لَكَ ولقَوْمِكَ وسَوْف تُسْأَلون » (سورة الزخرف ٤٤) . ونفهم المعنى هنا على الوجه التالى :

إن هذا القرآن الذى أنزله الله عليك — يا محمد — والذى يأمرك أن تستمسك به ، يرفع ذكرك وذكر قومك . ويعلى قدرك وقدرهم ، وهو سبب تشريف لك ولهم ، فاسمك تردده مئات الملايين من الشفاه ، مصلية عليك مسلمة ، وستظل هذه الشفاه تردد اسمك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وقد رفع الله ذكر قومك بالإسلام وبالقرآن ، بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً ، أو كانوا على هامش الحياة ، وجعلهم أصحاب التبعة الكبرى فى مسيرة هذه الحياة ، وسيظلون أصحابها ماداموا معتدلين على طريقتها قائمين بتبعاتها ، وإن العظائم كفؤها العظماء .

وإنه لمجد عظيم أن ينزل القرآن الكتابُ الإلهى الخالد بلغة العرب ، ليوحد لهجاتهم ، ويضمن بقاء لغتهم ، والأمة العربية أمة وُلدت على الكلمة ، وقامت بالكلمة ، وعاشت للكلمة ، ومن هنا نتبين عظم الفضل الإلهى الذى تحقق لها . حينما جعل الله المعجزة الكبرى لنبيه العربى من جنس الكلمة العربية ، وهو القرآن المجيد .

ورواد القومية العربية يُجمعون – كما يعبر أحدهم – أن أهم العوامل التى تدفع إلى الاعتقاد بوحدة الأصل ، وإلى الشعور بالقرابة فى الشعوب ، هى وحدة اللغة والاشتراك فى التاريخ . فإن اللغة هى أهم الروابط المعنوية التى تربط الفرد بغيره من الناس ، لأن اللغة هى واسطة التفاهم بينهم ، وآلة التفكير عندهم ، ووسيلة نقل الأفكار والآراء .

ولهذا توجد وحدةُ اللغة نوعاً من الوحدة فى الشعور والأفكار ، وتربط الأفراد بسلسلة طويلة من الروابط الفكرية والعاطفية ، فيتقاربون ويتماثلون ويتعاطفون ، والأمم يتميز بعضها عن بعض باللغة ، وحياة الأمة تقوم على لغتها قبل كل شىء ، فإذا أضاعت الأمة لغتها فقد أضاعت نفسها ، لأن اللغة هى روح الأمة .

هكذا قرروا وأكدوا . ويمكننا أن نستضىء فى هذا المجال بقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه :

« ليست العربية من أحدكم بأب ولا أم ، وإنما هى اللسان – واللسان هو اللغة – فمن تكلم العربية فهو عربى » . وبهذا التفسير البصير للعروبة يبعد معنى التعصب الجنسى أو العِرْقى ، ومن هنا تتقوض تلك الفرية التى روَّج لها أهل الاستشراق المشوف حين قالوا : إن نزول القرآن بلغة العرب لون من العصبية ، مع أن الواقع ينادى بأن القرآن يدعو إلى مائدته الناس

جميعاً ، ولابد من اختيار إلهى للغة ينزل بها القرآن ، إذ لا يستقيم فى مطق أن ينزل بكل اللغات الكثيرة التى عرفها البشر ، والقرآن الحكيم هو القائل فى سورة الروم : « ومن آياته خلقُ السموات والأرض واختلاف أَلْسِنَتِكُمْ وألوانِكُمْ إنَّ فى ذلك لآيات لِلْعَالمين » . (الآية ٢٢) .

ولقد كان نزول القرآن بلغة العرب بعثاً لها ، وتجديداً لشبابها ، وتمجيداً لشأنها ، حتى قال « رينان » : « من أغرب ما وقع فى تاريخ البشر ، وصعب حل سره ، انتشار اللغة العربية ، فقد كانت هذه اللغة غير معروفة بادئ ذى بدء ، ثم ظهرت فجأة لغة كاملة سلسة كل السلاسة ، غنية إلى أبعد حد » . وهذا كله كان بفضل القرآن الكريم .

وأمام تمجيد هذه اللغة لم تملك معجمات اللغة زمامها ، فاندفعت تشارك فى هذا التمجيد .

فلنقرأ هذه السطور من معجم « تاج العروس من جواهر القاموس » :

« العربية هى هذه اللغة الشريفة ، رفع الله شأنها . قال قتادة : كانت قريش تجتبى أى تختار – أفضل لغات العرب ، حتى صار أفضلُ لغاتها لغتها ، فنزل القرآن بها . واختُلف فى سبب تسمية العرب ، فقيل لإعراب لسانهم ، أى إيضاحه وبيانه ، لأنه أشرف الألسن وأوضحها وأعربها عن المراد ، بوجوه من الاختصار ، والإيجاز ، والإطناب والمساواة ، وغير ذلك » .

وقد امتد فضل القرآن على لغة العرب ، فجعلها لغة مقدسة : كانت لغة دنيا ، فجعلها لغة دنيا ولغة دين ، وجعلها شيئاً يعبد الناسُ ربَّهم به فى الصلاة والدعاء والمناجاة ، ونشرها بين العالمين ، فكلما دخل القرآن داراً ليحمل الإسلام إليها ، حمل معه الحروف العربية والكلمات العربية والتعبير العربى ، ممثلا فى أروع بيان وهو القرآن ، فنسخ لغات ، وأقام

مكانها لغة العرب : لغة القرآن .

وها هو ذا القرآن – على سبيل المثال – يحمل الحرف العربى إلى الأندلس ، ويفتن به أهلها من غير المسلمين ، فإذا هم يقبلون على العربية ويهيمون بها ، حتى نرى المؤرخ « دوزى » يورد فى كتابه عن الإسلام فى الأندلس رسالة للكاتب الإسبانى « ألفارو » يتفجع فيها على تضعضع لغة اللاتين والإغريق أمام قوة اللغة القرآنية ، ويقول فيما يقول :

« إن أرباب الفطنة والتذوق سحرهم رنين الأدب العربى ، فاحتقروا اللاتينية ، وجعلوا يكتبون بلغة قاهريهم دون غيرها » .

ويقول آخر : « إن إخوانى المسيحيين يعجبون بشعر العرب وأقاصيصهم ، ويدرسون التصانيف التى كتبها الفلاسفة والفقهاء المسلمون ، ولا يفعلون ذلك لدحضها والرد عليها ، بل لاقتباس الأسلوب العربى الفصيح . فأين اليوم من غير رجال الدين من يقرأ التفاسير الدينية للتوراة والإنجيل ؟ وأين اليوم من يقرأ الأناجيل وصحف الرسل والأنبياء ؟ . وأسفاه ، إن الجيل الناشئ من المسيحيين الأذكياء لا يحسنون أدباً أولغةً غير الأدب العربى واللغة العربية ، وإنهم ليلتهمون كتب العرب ، ويجمعون منها المكتبات الكبيرة بأغلى الأثمان ، ويترنمون فى كل مكان بالثناء على الذخائر العربية ، فى حين يسمعون بالكتب المسيحية فيأنفون الإصغاء إليها ، محتجين بأنها شىء لا يستحق منهم مؤنة الالتفات .

فيا للأسى ، إن المسيحيين قد دنسوا لغتهم فلن تجد منهم اليوم واحداً فى كل ألف يكتب بها خطاباً إلى صديق ، أما لغة العرب فما أكثر الذين يحسنون التعبير بها على أحسن أسلوب ، وقد ينظمون بها شعراً يفوق شعر العرب أنفسهم فى الأناقة وصحة الأداء » .

* * *

ولقد ذكر الله تبارك وتعالى وصف القرآن الكريم بأنه « عربى » عشر مرات فى عشرة مواطن .

أكان ذلك عبثاً ؟ . . معاذ الله ! . . بل لأمر جليل كرر الله جل علاه هذا الوصف وأكده .

يقول الله تعالى فى سورة يوسف : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » (الآية ٢) أى إنا أنزلنا هذا الكتاب الإلهى ، وهو القرآن الكريم ، ليبين لكم بلغتكم العربية من أحكام الدين وتعاليم الشريعة ، وأخبار الرسل وأمور الحكمة ، مالم تكونوا تعلمونه قبل هذا القرآن ، لعلكم تدركون معانيه ، وتفهمون معاريه ، فتهتدون إلى مطالب الدين والدنيا ، وأسباب السعادة فى الحس والنفس ، ووسائل الإصلاح فى الحال والمآل .

ويقول فى سورة الرعد : « وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيًّا ، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ » (الآية ٣٧) : أنزل الله القرآن متضمناً حكمةً ترجم عنها بلسان العرب ، أو أنزله مشتملا على جميع التكاليف ، فهو أساس لجميع الأحكام ، فشرف الله به رسوله ، وفضله على من سواه .

ويقول فى سورة النحل : « وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ ، وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُبِينٌ » (الآية ١٠٣) : افترى المشركون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الذى يلقنه القرآن إنما هو شخص من الناس أعجمى اللغة ، لا يفصح ولا يبين ، فكيف يصح هذا مع أن القرآن كتاب مبين بلغة العرب ، لا يستطيع الإنس ولا الجن أن يعارضوا سورة منه ، فهو أفصح ما يكون من العربية .

ويقول فى سورة طه : « وكذلِكَ أنْزَلْناهُ قُرْآناً عربيًّا وصرَّفْنا فِيهِ مِن الوَعِيدِ لَعَلَّهم يتَّقُونَ أو يُحْدِثُ لهُمْ ذكْراً » . (الآية ١١٣) :

أى أنزلنا هذا القرآن بشيراً ونذيراً ، بلسان عربى مبين فصيح ، لا لبس فيه ولا عىّ .

ويقول فى سورة الشعراء : « وَإنَّهُ لتَنْزِيلُ رَبِّ العَالمِيَنَ ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنذِرِين ، بلسان عربىّ مُبِين » . (الآيات ١٩٢ و ١٩٣ و ١٩٤ و ١٩٥) .

إن هذا القرآن المجيد قد أنزله الله عليك ، وأوحاه إليك ، نزل به جبريل عليه السلام ، ذلك الملك الكريم الأمين ، ذو المكانة العالية عند الله ، لتنذر به بأس الله ونقمته على من خالفه وكذبه ، وتبشر به المؤمنين المتبعين له . وقد أنزله الله باللسان العربى الفصيح ، الكامل الشامل ، ليكون بياناً واضحاً ظاهراً ، قاطعاً للعذر ، مقيماً للحجة ، دليلا على المحجة .

ويقول فى سورة الزمر : « ولقد ضَرَبْنا للنَّاس فى هذا القُرْآنِ مِنْ كلِّ مثَل لَعلَّهم يَتذكَّرونَ ، قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوجٍ لَعلَّهُم يتقون » (الآيتان ٢٧ و ٢٨) .

لقد بيَّنا للناس فى هذا القرآن الحكيم بضرب الأمثال التى تقرب المعانى إلى الأذهان ، وهو قرآن بلغة عربية ذات بيان ، ووضوح وبرهان ، فلا اعوجاج فيه ولا لبس .

ويقول فى سورة فصلت : « تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمن الرَّحِيم ، كِتَابٌ فُصِّلتْ آياتهُ قُرْآناً عربيًّا لِقَوْمٍ يعْلَمونَ » (الآيتان ٢ و ٣) : إن القرآن منزل من مصدر الرحمة الواسعة الشاملة ، وهو كتاب تجلت معانيه وأحكمت آياته بلغة عربية ، فمعانيه مفصلة ، ومفاهيمه واضحة غير مشكلة ، لأنه كتاب

فصلت آياته من لدن حكيم خبير .

ويقول فى سورة الشورى : « وكَذٰلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عربيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى ومَنْ حَوْلَها وتُنْذِرَ يَوْمَ الجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فى الجَنَّةِ وفَرِيقٌ فى السَّعِيرِ » (الآية ٧) :

أى كما أوحينا إلى الأنبياء من قبلك أوحينا إليك قرآناً عربيًّا ، واضحاً جليًّا ، لتنذر أم القرى مكة ، وسائر البلاد من حولها شرقاً وغرباً ، وتنذرهم يوم القيامة الذى يجمع الأولين والآخرين فى صعيد واحد ، ولا شك فى وقوعه وأنه كائن لا محالة .

وحسب مكة شرفاً – وهى واسطة عقد الأرض العربية – أن يصفها القرآن بأنها أم القرى ، وأن يقول فيها الرسول وهو يخاطبها كما روى ابن كثير : « والله إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت » .

ولماذا اختار الله قومَ أم القرى ليكونوا حملة هذه الرسالة فى أول أمرها من حول زعيمها محمد ؟ ولماذا اختيرت هذه الأرض بالذات ؟ . أكان ذلك اعتباطاً أم لحكمة تتبعها حِكَم ؟ . يجيب عن ذلك صاحب « فى ظلال القرآن » فى توسع منه هذه الكلمات :

« كانت هناك صفات الشعب العربى نفسه ، من الشجاعة والأريحية والنخوة ، وهى استعدادات ضرورية لحمل العقيدة الجديدة والنهوض بتكاليفها .

وقد كانت الجزيرة فى ذلك الزمان تزخر بحضانة عميقة لبذور نهضة ، وكانت تجيش بكفايات واستعدادات وشخصيات تتهيأ لهذه النهضة المذخورة لها فى ضمير الغيب ؛ وكانت قد حفلت بتجارب إنسانية معينة

من رحلاتها إلى أطراف إمبراطوريتى كسرى وقيصر ، وأشهرها رحلة الشتاء إلى الجنوب ، ورحلة الصيف إلى الشمال : المذكورتان فى القرآن فى قوله تعالى فى سورة قريش :

« لإيلافِ قُرَيشٍ إيلافِهِمْ ، رِحْلَةَ الشِّتاءِ والصَّيْفِ ، فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذا الْبَيْتِ ، الَّذِى أطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وآمَنَهُمْ من خَوْفٍ » .

وتضافرت أسباب كثيرة لحشد رصيد ضخم من التجارب ، مع التفتح والتأهب لاستقبال المهمة الضخمة التى اختيرت لها الجزيرة . فلما جاءها الإسلام استغل هذا الرصيد كله ، ووجَّه هذه الطاقة المختزنة ، التى كانت تتهيأ كنوزها لتفتح ، ففتحها الله بمفتاح الإسلام . وجعلها رصيداً له وذخراً .

ولعل هذا بعض ما يفسر لنا وجود هذا الحشد من الرجال العظام فى الصحابة فى الجيل الأول فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، من أمثال أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، وحمزة والعباس وأبى عبيدة ، وسعد بن أبى وقاص وخالد بن الوليد ، وسعد بن معاذ وأبى أيوب الأنصارى ، وغيرهم وغيرهم من تلك العصبة التى تلقت الإسلام فتفتحت له وحملته ، وكبرت به من غير شك وصلحت ، ولكنها كانت تحمل البذرة الصالحة للنمو والتمام .

وليس هنا مكان التفصيل فى وصف استعداد الجزيرة لحمل الرسالة الجديدة ، وصيانة نشأتها ، وتمكينها من الهيمنة على ذاتها وعلى من حولها ، مما يشير إلى بعض أسباب اختيارها لتكون مهد العقيدة الجديدة التى جاءت للبشرية جميعها ، وإلى اختيار هذا البيت بالذات ليكون منه حامل هذه الرسالة — صلى الله عليه وسلم — فذلك أمر يطول ، ومكانه رسالة خاصة مستقلة . وحسبنا هذه الإشارة إلى حكمة الله المكنونة ، التى يظهر التدبرُ والتفكر بعض أطرافها ، كلما اتسعت تجارب البشر وإدراكهم لسنن الحياة .

وهكذا جاء هذا القرآن عربيًا لينذر أم القرى ومن حولها ، فلما خرجت الجزيرة من الجاهلية إلى الإسلام ، وخلصت كلها للإسلام ، حملت الراية وشرقت بها وغربت ، وقدمت الرسالة الجديدة والنظام الإنسانى الذى قام على أساسها للبشرية جميعها - كما هى طبيعة هذه الرسالة - وكان الذين حملوها هم أصلح خلق الله لحملها ونقلها ، وقد خرجوا بها من أصلح مكان فى الأرض لميلادها ونشأتها .

وليس من المصادفات أن يعيش الرسول صلى الله عليه وسلم حتى تخلص الجزيرة العربية للإسلام ، ويتمحص هذا المهد للعقيدة التى اختير لها على علم ، كما اختير لها اللسان الذى يصلح لحملها إلى أقطار الأرض جميعاً ، فقد كانت اللغة العربية بلغت نضجها ، وأصبحت صالحة لحمل هذه الدعوة والسير بها فى أقطار الأرض ، ولو كانت لغة ميتة أو ناقصة التكوين الطبيعى ما صلحت لحمل هذه الدعوة أولا ، وما صلحت بالذات لنقلها إلى خارج الجزيرة العربية ثانيًا ، وقد كانت اللغة كأصحابها أصلح ما تكون لهذا الحدث الكونى العظيم » ! !

ويقول القرآن فى أول سورة الزخرف :

« حٰمٓ والكِتابِ المُبِينِ ، إنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عربيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُون ، وإنَّهُ فى أُمِّ الكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيم » :أى وحق هذا الكتاب الواضح ، الجلى المعانى والألفاظ ، إنا أنزلناه بلغة العرب التى هى أفصح اللغات للتخاطب بين الناس ،لعلكم تفهمونه وتتدبرونه ؛ وهو شريف المكانة فى الملأ الأعلى ، وهو فى اللوح المحفوظ ذومكانة عظيمة وشرف كبير .

وإنا نُقْسم بحاميم وبالكتاب المبين على الغاية من جعل القرآن المجيد فى صورته العربية التى نزل بها إلى العرب : « إنّا جعلناه قرآناً عربيًّا لعلكم

تعقلون » . أى تعقلون النعمة الكبرى التى أنعم الله بها عليكم حين نزله بلغتكم ولسانكم ، وحين اختاركم لحمل رسالته ، إذ هو الذى يعلم مدى صلاحيتكم لحملها ، وهذا الكتاب – وهو القرآن العربى - كتاب علىٌّ حكيم ، فلابد لكم من أن تقدروا هذه المنة الإلهية الجليلة التى امتن الله بها عليكم ، وإلا لم تكونوا من العقلاء .

ويقول القرآن فى سورة الأحقاف : « وهذا كتابٌ مُصدِّقٌ لساناً عربيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِين ظَلَمُوا وبُشْرى للمحْسِنِينَ » (الآية ١٢) إن هذا القرآن مصدق لما سبقه من كتب الله تبارك وتعالى ، وهو الكتاب الخاتم الجامع ، قد جعله الله بلسان عربى فصيح ، لتبقى به لغة العرب ، وليكون وعيداً منذراً للظالمين ، وبشرى كريمة للمحسنين .

هكذا هكذا كما رأيت من قبل . . .

يذكر الله عروبة القرآن عشرمرات فى عشرة مواطن . . .

أيكون وراء ذلك التنويه المؤكد الموطد تنويه ؟

* * *

وتتضمن إشارات القرآن الحكيم مزيداً من التكريم للعروبة والتفضل عليها ، حتى ذكر بعض المفسرين أن قوله تعالى فى سورة إبراهيم : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابتٌ وفَرْعُها فِى السَّمَاءِ . تُؤْتِى أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها » (الآيتان ٢٣ و ٢٤) .

نزل فى شأن « قريش » وهى عماد العرب ، وأن الشجرة الطيبة هى قريش ، لأن أصلها كريم . وإن صح هذا القول فلابد أن يكون المراد من قريش هم الذين استقاموا منها فجمعوا إلى طيب الأصل طيب العمل .

وقد نوه القرآن بتكريم الله لقريش ، وفضله عليها ، فذلك حيث نزلت

السورة التى تسمى « سورة قريش » وفيها كما سبق يقول الحق : « لإيلافِ قريشٍ إيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتاءِ والصَّيفِ ، فلْيَعْبُدوا رَبَّ هذَا البَيْتِ ، الَّذِى أطْعَمَهُم مِنْ جُوعٍ وآمَنَهُم مِنْ خَوْفٍ » .

وفى تفسير هذه السورة يقول الإمام محمد عبده :

« كانت لقريش رحلتان : إحداهما إلى اليمن زمن الشتاء ، والأخرى إلى الشام فى فصل الصيف ، يذهب التجار فيهما للكسب ، واجتلاب الربح ، والاستكثار من الرزق ، وكانت قوافل قريش معروفة عند العرب ، محترمة فى نفوسهم ، لأنهم سكان مكة ، وجيران بيت الله ، فكانوا يذهبون آمنين ، ويعودون سالمين ، لا يمسهم السوء ، على كثرة ما كان بين العرب من النهب والسلب .

فكان احترام البيت ضرباً من القوة المعنوية التى كانت تحتمى بها قريش فى أسفار أرباب التجارة منها . ولهذا ألفت نفوسهم الأسفار ، وتعلقت بالرحيل لاستدرار مادة الرزق .

ولو نزلت مكانة البيت من نفوس العرب ، ونقصت حرمته عندهم ، واستطالت الأيدى بالتعدى على سفارهم ، لنفروا من تلك الرحلات ، وكرهتها نفوسهم ، فقلت وسائل الكسب بينهم ، لأن أرضهم ليست بذات زرع ، وما هم بأهل صناعة مشهورة يحتاج الناس إليها فيأتونهم – وهم فى عقر دارهم – ليأخذوا منها ، فكانت تضيق عليهم مسالك الأرزاق ، وتنقطع عنهم ينابيع الخير .

وهذا الإجلال – الذى ملك نفوس العرب من البيت الحرام – إنما هو تسخير رب البيت سبحانه ، وقد حفظ حرمته برد الحبشة الذين أرادوا هدمه وإهلاكهم قبل أن ينقضوا منه حجراً ، بل قبل أن يدنوا منه ،

بل زاد ذلك فى إجلاله ، لتدوم ألفتهم للأسفار والترحل فى الصيف والشتاء .

فعليهم أن يعبدوا رب هذا البيت الذى حماه ، ومكّن منزلته من النفوس ، وقد أطعمهم بذلك ، وأوسع لهم من الرزق ، ولولا ذلك لكانوا فى جوع وضنك عيش ، وآمنهم من التعدى وتطاول الأيدى إلى أموالهم وأرواحهم ، ولولا ذلك لأخذهم الخوف من كل مكان » .

* * *

وهناك شبهة تحتاج إلى التمحيص والتفنيد .

هناك من يسىء فهم القرآن ، فيدعى أن القرآن قد ذم « العرب » لأنه قد وصف « الأعراب » بأنهم أشد كفراً ونفاقاً ... وكأن هذا المسىء يعمى أو يتعامى عن اختلاف كلمتى « العرب » و« الأعراب » فى المبنى والمعنى ، فيخلط خلط الجاهل أو المتحامل . . .

من الحق أن القرآن قد ذم « الأعراب » فى مواطن ، ولكن هناك فرقاً أساسيًّا واضحاً بين « العرب » و « الأعراب » ، والذم الوارد متعلق بالأعراب ، ولم يرد منه شىء يتعلق بالعرب .

إن لفظة « الأعراب » وردت فى القرآن الكريم عشر مرات فى عشرة مواطن ، منها ثمانية مواطن من قبيل الذم . يقول القرآن فى سورة التوبة : « الأعْرابُ أشدُّ كُفْراً ونِفاقاً وأجْدَرُ ألّا يعْلَمُوا حُدُودَ ما أنْزلَ اللهُ عَلَى رسُولِهِ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » (الآية ٩٧) .

ويقول فيها : « ومِنَ الأعْراب مَنْ يتَّخذُ ما يُنْفِقُ مَغْرماً ويتربَّصُ بِكُمُ الدَّوائرَ عَلَيْهِمْ دائرةُ السَّوْءِ واللهُ سَميعٌ عَليمٌ » (الآية ٩٨) .

ويقول فيها : « وجاءَ المعذِّرُونَ مِنَ الأعْرابِ لِيُؤْذَنَ لَهُم وقَعدَ الَّذِينَ كذَبُوا اللهَ ورسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذين كَفَرُوا مِنْهم عذابٌ أليمٌ » (الآية ٩٠) .

ويقول فيها : « ومِمَّنْ حَوْلَكُم من الأَعْراب مُنافِقُونَ ومِنْ أَهْلِ المَدِينةِ مَرَدُوا علَى النِّفاق لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مرَّتَيْن ، ثمَّ يُرَدُّونَ إلى عَذَابٍ عظيم » (الآية ١٠١) .

ويقول فيها : « ما كانَ لأَهْلِ المَدِينَةِ ومَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرابِ أنْ يَتخلَّفُوا عَنْ رسُولِ اللهِ ولا يَرْغَبُوا بأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ » (الآية ١٢٠) .

ويقول فى سورة الأحزاب : « يَحْسَبُونَ الأَحْزابَ لَمْ يذْهَبُوا وإنْ يَأْتِ الأَحْزابُ يَودُّوا لَوْ أَنَّهم بادُون فى الأَعْرابِ يَسْأَلُون عَنْ أَنْبائِكُم ولَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إلَّا قليلاً » (الآية ٢٠) .

ويقول فى سورة الفتح : « سَيقُولُ لَكَ المخلَّفُون مِنَ الأَعْراب شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وأَهْلُونا فاسْتَغْفِرْ لنَا يقُولُونَ بأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فى قُلوبِهِمْ قلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لكُمْ مِنَ اللهِ شَيئاً إنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كانَ اللهُ بما تَعْملونَ خبيراً » . (الآية ١١) .

ويقول فى سورة الفتح أيضاً : « قُلْ للمُخلَّفِينَ مِنَ الأَعْرابِ سَتُدْعَوْن إلى قَوْمٍ أُولى بأْسٍ شَدِيدٍ تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ، فإنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْراً حَسَناً ، وإنْ تَتَوَلَّوْا كما تَوَلَّيْتُم مِنْ قبلُ يُعذِّبْكُم عَذاباً أَلِيماً » (الآية ١٦) .

هكذا تحدثت الآيات فى ذم « الأعراب » .

ولكن « الأعراب » غير « العرب » .

فى « النهاية » : الأعراب سكان البادية من العرب الذين لا يقيمون فى الأمصار ، ولا يدخلونها إلا لحاجة .

وفى « مفردات القرآن » : الأعراب سكان البادية ، والأعراب — فى التعارف — صار اسماً للمنسوبين إلى سكان البادية .

وسكان البادية هم المتنقلون ارتياداً للكلأ ، وتتبعاً لمساقط الغيث والنسبة

إليهم أعرابى ، والأعرابى يفرح إذا قيل له : يا عربى ، كما أن العربى يغضب إذا قيل له : يا أعرابى .

انظر . أرأيت ؟ ! . . ولذلك عُدَّ من الكبائر التعرب بعد الهجرة ، أى العودة إلى البادية ، وكان من رجع بعد الهجرة إلى البادية دون عذر عدوه كالمرتد .

وفى « تاج العروس » : يقول الأزهرى : والذى لا يفرق بين العرب والأعراب ، والعربى والأعرابى ، ربما تحامل على العرب بما يتأوله فى هذه الآية : « الأعراب أشد كفراً ونفاقاً » ، وهو لا يميز بين العرب والأعراب . ولا يجوز أن يقال للمهاجرين والأنصار : أعراب . وإنما هم عرب ، لأنهم استوطنوا القرى العربية وسكنوا المدن ، سواء منهم الناشئ بالبدو ثم استوطن القرى ، والناشئ بمكة ثم هاجر إلى المدينة ، فإن لحقت طائفة منهم بأهل البدو بعد هجرتهم ، واقتنوا أنعاماً ، ورعوا مساقط الغيث بعد ما كانوا حاضرة أو مهاجرة ، قيل : قد تعربوا ، أى صاروا أعرابا بعد ما كانوا عربًا . . .

إذن استنارت المحكمة ، وجاءت براءة للعرب من معجمات اللغة تسلهم من حزب « الأعراب » ، حتى لا يلحق شىء من مذمة « الأعراب » الكافرين المنافقين بحزب « العرب الشرفاء المؤمنين » .

أما بعد ، فما لا شك فيه أن كتاب الله تعالى « القرآن » قد تضمن الكثير من الإشارات إلى التنويه بالعروبة ولغة العرب ، وأن الإسلام قد أكسب العرب المجد والعزة حين استجابوا لدعوته : دعوة الله عزوجل .

فلنواصل ترديدنا لقولنا : إن العروبة وعاء الإسلام ، وإن الإسلام روح العروبة » .

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .